○ مقدمـــة ○

بقلم فضيلة الشيخ / محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على محمدٍ رسوله وعبده، وعلى آله وصحبه، وأوليائه من بعده .

أما بعـد :

فبين يديك - أخي المسلم - هذا المجموع القيم، الذي حفل بدروس وعبر، تُدَنْدِنُ حول سُنَّةٍ إلٰهية، وتحوم حول قاعدة عَدْلية، ألا وهي: أن جزاء العاملِ يكون من جنس عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ﴿**جزاءً وِفاقًا**﴾، وهي قاعدة شريفة، مستقاة من نصوص كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ثم من وحي (أيام الله) التي انقضت أحداثها، لكنها بقيت - على مَرِّ الزمان - تهتف بلسان حالها :

(هل من مُعتَبِرٍ ، أم على قلوبٍ أقفالها ؟)

لقد أودع الله العليم الحكيم هـذا الكـون سننًا ثابتة ، لا تتغير ولا تتبدل، وقاعدة : (كما تَدِينُ تُدان) سنة من هذه السنن، لو وضعناها نُصبَ أعيننا لَزَجرتْنا عن كثير من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، ولو أَحْلَلْنَاها في قلوبنا المحل الرفيع اللائق بها لأشهدتْنا أماراتٍ تُخيِّل لنا ما ينتظرنا من عاقبة أعمالنا، فقد قال ﷺ : « كما لا يُجْتَنى من الشوك العنبُ، كذلك لا يَنْزِلُ الفُجَّارُ منازلَ الأبرار، فاسلكوا أيَّ طريق شِئْتم، فأيَّ طريق سَلَكْتم وَرَدتم على أَهْله » رواه أبو نعيم في الحلية، وقال ﷺ: **«مَنْ أراد أن يَعْلَمَ ما له عند الله، فلينظر مَا لله عِندَهُ»** رواه الدارقطني في الأفراد، وأبو نعيم في الحلية، وزاد الحاكم في روايته : « فإن الله يُنزل العبدَ منه حيث أنزَلَه من نفسه » .

ولهذه القاعدة المباركة آثار عظيمةُ النفع في إصلاح الدين والدنيا، وهذا الانتفاع وَقْفٌ على أولي الألباب، الذين يَحكمون على الأمور بمآلاتِها، وَيَزِنُونَ الأفعال بعواقبها، وهي في المقام الأول دافعة للأعمال الصالحة، ناهية عن الظلم، زاجرة للظالمين، مُوَاسية للمظلومين .

فلو استحضر الظالمُ الباغي عاقبةَ ظُلمِهِ، وأن الله سَيُسْقِيه من نفسِ الكأس، عاجلًا أو آجلًا، لَكَفَّ عن ظلمه، وتاب إلى الله وأناب، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه سعيد بن جبير – رحمه الله تعالى – لما قال له الحجاج : اخْتَرْ يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك. فقال سعيد : « بل اخْتَرْ لنفسكِ ياحجاج، فوالله، ما تقتلني قَتْلةً، إلا قَتَلَكَ الله مثلها يوم القيامة » .

ولو أن هذا الذي يَهْدِمُ بنيان الله، ويَهْدر الدمَ الحرام بغير حق، تَدبَّر الحكمة القائلة: (بَشّرِ القاتلَ بالقتل)، لأحجم عن فِعلةٍ عَاقبتها الهَلكة. وَلَعَذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى .

ولو أن هذا الفاجرَ المستهتر، الذي يعبث بحرمات الناس، وينتهك أعراضهم، عَلِمَ أن عدل الله قد يقضي بأن يسلط على عِرض أمه أو زوجته أو ابنته أو أخته من لا يتقي الله فيه، فينال منه كما نال هو من عرض غيره، لَارْعَوى وانزجر :

من يَزْنِ في قومٍ بألفَيْ دِرْهمٍ ... في أهله يُزنَى. بربعِ الدِّرهمِ
إن الزِّنا دَيْنٌ إذا استقرضتَه ... كان الوَفَا من أهلِ بيتكِ فاعْلَمِ

ولو أن الوصيَّ على مال اليتامى سَوَّل له الشيطانُ أَكْلَه بالباطل، فاستحضر قولَه جلَّ وعلا : ﴿ وليخْش الذين لو تركوا من خلْفهم ذرية ضِعَافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولًا سَدِيدًا ﴾ لاتقَى الله فيهم ، وقال قولًا سديدًا ؛ كي يحفظ الله ذريته من بعده ﴿ جزاءً وفاقًا ﴾ .

وفي هذه القاعدة الشريفة أعظم مواساة للمظلوم المستضعف، والمقهور المغلوب، حيث تؤزه على الصبر والثبات، وُثُوقًا بمَوْعود الله الذي يُمهل ولا يُهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته، ويمده إيمانه بأن (الجزاء من جنس العمل) بوقودٍ إيماني يدفعه للمُضِيِّ في طريقه صابرًا مُحتسبًا .

وقد طوَّفتُ بأبواب هذا المجموع، وبكثير من فصوله، طوافًا سريعًا ، كأشواط الرَّمَل في طواف القدوم، فلمحتُه قد ضَمَّ إلى هاتيك المطالب العالية ، ثمارًا يانعةً، دانيةَ القطوف، مع فوائد واستطرادات يندر فيها المُنْكَر ، ويكثر المعروف .

والله تعالى أسأل أن يجعل عمل جامعه لوجهه خالصًا، ويجعل ظِلَّ الفائدة به ممدودًا لا قَالصًا، وأن يجعل أُجْره على العَنَاء فيه كاملًا لا ناقصًا، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم .

.. وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين ..

وكتب

محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم

الإسكندرية في ٢ جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ

الموافق ٦ / ١١ / ١٩٩٤ م